بسم الله الرحمن الرحيم

الْأَخْذُ بِالْأَسْبَابِ فِي الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ٣ مُحَرَّمٍ ١٤٤٥هـ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ عَاشَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَكَّةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ عَامًا يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَىٰ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فَمَا آمَنَ بِهِ إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنَّهُمْ قِلَّةٌ صَادِقَةٌ خَالَطَ الْإِيمَانُ بَشَاشَةَ قُلُوبِهِمْ، هَذَا الْإِيمَانُ الَّذِي دَفَعَ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ إِلَىٰ الْعِبَادَةِ وَالزِّيَادَةِ، وَجَعَلَهُمْ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَىٰ أَنْ دَانَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا كُلُّهَا، ذَلِكَ الْإِيمَانُ الَّذِي غَرَسَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي قُلُوبِهِمْ، جَعَلَ مِنْ عُبَّادِ الْأَوْثَانِ عُبَّادًا لِلرَّحْمَنِ، وَجَعَلَ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ قَوْمًا يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا، وَجَعَلَ مِنْهُمْ رِجَالًا سَطَّرُوا أَرْوَعَ صَفَحَاتِ التَّارِيخِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَيَادِينِ.

عِبَادَ اللهِ: لَمَّا اشْتَدَّ إِيذَاءُ الْمُشْرِكِينَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ هَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، وَلَقَدْ أُوذِيَ النَّبِيُّ ﷺ كَثِيرًا، فَصَبَرَ وَصَابَرَ، وَظَلَّ الْمُشْرِكُونَ عَلَىٰ عِنَادِهِمْ وَكَيْدِهِمْ، فَاجْتَمَعُوا فِي دَارِ النَّدْوَةِ، وَعَقَدُوا مُؤْتَمَرَ الدَّسِيسَةِ وَالْغَدْرِ، فَمِنْ قَائِلٍ بِنَفْيِهِ، وَمِنْ قَائِلٍ بِحَبْسِهِ، إِلَىٰ أَنِ اسْتَقَرَّ رَأْيُهُمْ عَلَىٰ أَنْ يَخْتَارُوا مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ شَابًّا جَلْدًا قَوِيًّا، يُحِيطُونَ بِدَارِهِ ﷺ، وَعِنْدَمَا يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ يَضْرِبُونَهُ ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَيَتَفَرَّقُ دَمُهُ بَيْنَ الْقَبَائِلِ، وَلَكِنْ فَضَحَ اللهُ سِتْرَهُمْ، وَخَيَّبَ أَمْرَهُمْ، فَقَالَ مُخَاطِبًا رَسُولَهُ ﷺ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، ثُمَّ يَنْزِلُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُخْبِرُهُ أَنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لَهُ بِالْهِجْرَةِ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مِنْ غَارِ ثَوْرٍ بِمَكَّةَ كَانَ الْمُنْطَلَقُ السَّعِيدُ لِهَذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ، وَبَعْدَ سَفَرٍ مُضْنٍ وَجُهْدٍ شَاقٍّ، وَتَحَمُّلِ قَيْظٍ، تَلُوحُ لِلنَّبِيِّ ﷺ طَيْبَةُ الْمُبَارَكَةُ، وَيَسْتَقْبِلُ أَهْلُهَا النَّبِيَّ ﷺ اسْتِقْبَالًا عَظِيمًا، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

عِبَادَ اللهِ: لَقَدْ كَانَتِ الْهِجْرَةُ النَّبَوِيَّةُ مَلِيئَةً بِالْعِظَاتِ وَالْعِبَرِ، وَمِنْ ذَلِكَ:

الْأُولَىٰ: رَبَّىٰ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ عَلَىٰ مُوَاجَهَةِ الصِّعَابِ؛ فَكَانُوا أَبْطَالًا شُجْعَانًا. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ»: أَتَىٰ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «لَا تَبِتْ هَذِهِ اللَّيْلَةَ عَلَىٰ فِرَاشِكَ الَّذِي كُنْتَ تَبِيتُ عَلَيْهِ»، قَالَ: فَلَمَّا كَانَتْ عَتْمَةٌ مِنَ اللَّيْلِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ بَابِهِ يَرْصُدُونَهُ مَتَىٰ يَنَامُ، فَيَثِبُونَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَانَهُمْ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «نَمْ عَلَىٰ فِرَاشِي، وتَسَجَّ بِبُرْدِي هَذَا الْحَضْرَمِيِّ الْأَخْضَرِ، فَنَمْ فِيهِ، فَإِنَّهُ لَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ مِنْهُمْ»، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَنَامُ فِي بُرْدِهِ ذَلِكَ إِذَا نَامَ.

الثَّانِيَةُ: رِعَايَةُ اللهِ لِعِبَادِهِ الْمُخْلِصِينَ الصَّادِقِينَ. فَهَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْتَبِئُ مَعَ صَاحِبِهِ فِي الْغَارِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، فَلَا تَحْرُسُهُ إِلَّا رِعَايَةُ اللهِ الَّذِي يَنْصُرُ عِبَادَهُ الْمُخْلِصِينَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾.

الثَّالِثَةُ: الْمَرْأَةُ الْمُسْلِمَةُ لَهَا دَوْرُهَا فِي نُصْرَةِ الدِّينِ. فَهَذِهِ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كَانَتْ تَحْمِلُ الزَّادَ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الْغَارِ، غَيْرَ خَائِفَةٍ مِنَ الْعُيُونِ وَالْأَرْصَادِ، وَشَقَّتْ نِطَاقَهَا نِصْفَيْنِ، رَبَطَتْ بِأَحَدِهِمَا الْجِرَابَ، وَبِالنِّصْفِ الْآخَرِ فَمَ قِرْبَةِ الْمَاءِ؛ فَسُمِّيَتْ: ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ.

الرَّابِعَةُ: حُبُّ الْوَطَنِ. فَهَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْرُجُ مِنْ مَكَّةَ فِي سَبِيلِ اللهِ مُتَأَثِّرًا لِمُفَارَقَةِ وَطَنِهِ مَكَّةَ، فَيَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، وَيُخَاطِبُهَا خِطَابَ الْمُحِبِّ لَهَا، أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمَكَّةَ: «مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ، وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ».

الْخَامِسَةُ: جَوَازُ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ الْمَشْرُوعَةِ. لَقَدْ قَرَّرَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ، وَالْمُسْلِمُ يَتَوَكَّلُ عَلَىٰ اللهِ، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ ذَلِكَ وَالْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ. أَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ»، وَحَسَّنَهُ

الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أُرْسِلُ رَاحِلَتِي وَأَتَوَكَّلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَلْ قَيِّدْهَا وَتَوَكَّلْ». وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَ التَّوَكُّلِ وَالْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ بِشَرْطِ عَدَمِ الِاعْتِقَادِ فِي الْأَسْبَابِ، أَوْ الِاعْتِمَادِ عَلَيْهَا، وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا». قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «جَامِعِ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ»: وَحَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ: هُوَ صِدْقُ اعْتِمَادِ الْقَلْبِ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي اسْتِجْلَابِ الْمَصَالِحِ، وَدَفْعِ الْمَضَارِّ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كُلِّهَا، وَكِلَةُ الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَيْهِ، وَتَحْقِيقُ الْإِيمَانِ بِأَنَّهُ لَا يُعْطِي وَلَا يَمْنَعُ وَلَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ سِوَاهُ. وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «السَّابِقِ»: وَاعْلَمْ أَنَّ تَحْقِيقَ التَّوَكُّلِ لَا يُنَافِي السَّعْيَ فِي الْأَسْبَابِ الَّتِي قَدَّرَ اللهُ سُبْحَانَهُ الْمَقْدُورَاتِ بِهَا، وَجَرَتْ سُنَّتُهُ فِي خَلْقِهِ بِذَلِكَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَمَرَ بِتَعَاطِي الْأَسْبَابِ مَعَ أَمْرِهِ بِالتَّوَكُّلِ، فَالسَّعْيُ فِي الْأَسْبَابِ بِالْجَوَارِحِ طَاعَةٌ لَهُ، وَالتَّوَكُّلُ بِالْقَلْبِ عَلَيْهِ إِيمَانٌ بِهِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾.

وَقَدِ اعْتَنَىٰ نَبِيُّنَا ﷺ بِالْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ فِي الْهِجْرَةِ عِنَايَةً فَائِقَةً؛ حَيْثُ خَطَّطَ ﷺ لِلْهِجْرَةِ تَخْطِيطًا وَاعِيًا، وَاتَّخَذَ كُلَّ الْوَسَائِلِ الَّتِي تُعِينُهُ عَلَىٰ إِنْجَاحِ مُهِمَّتِهِ، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ كَانَ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقًا بِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَدْعُوهُ وَيَسْتَنْصِرُهُ أَنْ يُكَلِّلَ سَعْيَهُ بِالنَّجَاحِ، فَجَمَعَ بَيْنَ حُسْنِ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحُسْنِ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ. فَكَانَ التَّوْقِيتُ الْمُنَاسِبُ لِلْخُرُوجِ لِلْهِجْرَةِ مُخْتَارًا بِعِنَايَةٍ، حَيْثُ جَاءَ نَبِيُّنَا ﷺ إِلَىٰ بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي وَقْتٍ شَدِيدِ الْحَرِّ حَتَّىٰ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ، وَكَانَ الْخُرُوجُ لَيْلًا مِنْ بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَقَلَّ يَوْمٌ كَانَ يَأْتِي عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا يَأْتِي فِيهِ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيِ النَّهَارِ، فَلَمَّا أُذِنَ لَهُ فِي الْخُرُوجِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ لَمْ يَرُعْنَا إِلَّا وَقَدْ أَتَانَا ظُهْرًا، فَخُبِّرَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: مَا جَاءَنَا النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا لِأَمْرٍ حَدَثَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: «أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ، يَعْنِي عَائِشَةَ وَأَسْمَاءَ، قَالَ: «أَشَعَرْتَ أَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ». قَالَ: الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «الصُّحْبَةَ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ عِنْدِي نَاقَتَيْنِ أَعْدَدْتُهُمَا لِلْخُرُوجِ، فَخُذْ إِحْدَاهُمَا، قَالَ: «قَدْ أَخَذْتُهَا بِالثَّمَنِ».

كَمَا بَلَغَ الِاحْتِيَاطُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ مَدَاهُ، فَاتَّخَذَ طُرُقًا غَيْرَ مَأْلُوفَةٍ، وَاسْتَعَانَ ﷺ بِشَخْصِيَّاتٍ مَاهِرَةٍ لِتُعَاوِنَهُ فِي شُئُونِ الْهِجْرَةِ، وَوَضَعَ كُلَّ فَرْدٍ فِي مَكَانِهِ الْمُنَاسِبِ، الَّذِي يُحْسِنُ مِنْ خِلَالِهِ الْقِيَامَ بِمُهِمَّتِهِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ، فَنَامَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَكَانَ نَبِيِّنَا ﷺ؛ تَمْوِيهًا عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ، وَأَدَاءً لِأَمَانَاتِ الْقَوْمِ، وَكَانَ دَوْرُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مُهِمًّا فِي اسْتِطْلَاعِ الْأَخْبَارِ وَرَصْدِهَا، كَمَا كَانَ عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ يَقُومُ بِدَوْرِ التَّمْوِيهِ بِأَغْنَامِهِ الَّتِي كَانَتْ تَمْحُو آثَارَ سَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَصَاحِبِهِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كَمَا كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُرَيْقِطٍ دَلِيلَ الْهِجْرَةِ، وَكَانَ خَبِيرًا بِالصَّحْرَاءِ، بَصِيرًا بِهَا، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُسْلِمًا.

السَّادِسَةُ: الثِّقَةُ وَإِحْسَانُ الظَّنِّ بِاللهِ. خَرَجَ رَسُولُ اللهِ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، وَاتَّجَهَ نَحْوَ الْمَدِينَةِ عَنْ طَرِيقِ السَّاحِلِ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فَارْتَحَلْنَا بَعْدَمَا زَالَتِ الشَّمْسُ، وَاتَّبَعَنَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: وَنَحْنُ فِي جَلَدٍ مِنَ الْأَرْضِ [أَيْ: أَرْضٌ صُلْبَةٌ]، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أُتِينَا، فَقَالَ: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا» فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَارْتَطَمَتْ فَرَسُهُ إِلَىٰ بَطْنِهَا، أُرَىٰ فَقَالَ: إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمَا قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَيَّ، فَادْعُوَا لِي، فَاللهُ لَكُمَا أَنْ أَرُدَّ عَنْكُمَا الطَّلَبَ، فَدَعَا اللهَ، فَنَجَا، فَرَجَعَ لَا يَلْقَىٰ أَحَدًا إِلَّا قَالَ: قَدْ كَفَيْتُكُمْ مَا هَاهُنَا، فَلَا يَلْقَىٰ أَحَدًا إِلَّا رَدَّهُ، قَالَ: وَوَفَىٰ لَنَا».